القسم الأول

في حقل الصدام

الفصل الأول:

التأسيس للصدام

الفصل الثاني:

الذات العملاقة والآخر القزم

الفصل الثالث:

الدين والأبواب المفتوحة

الفصل الرابع:

الصدام ترعاه المصالح

obeikandi.com

obeikandl.com

التأسيس للصدام

لماذا يكون الضجيج كبيراً حول أعمال العنف والشر، في حين تمر أعمال الخير والبناء على صفحة الحياة مروراً خجلاً دون إثارة أو ضجيج؟

لماذا نرى أن هناك مركزية تأريخية حول الأحداث الأكثر عنفاً، في حين نرى أن هناك مجانبة للأحداث التي تضفي الطمأنينة على الحياة البشرية؟ هل هذا مكر الحياة والتاريخ أم أنه نتاج إرادوية بشرية مغرضة؟

إن مسار التاريخ أصبح مرتهناً لمحطات أو أحداث كبرى مرت بها البشرية، تكاد تتوارى عن هذا المسار كل تلك المحطات التي كانت تحيل حياة الناس إلى السهولة والاطمئنان، في حين تبرز الأحداث التي شكلت قسراً لهذا المسار. فحروب نبوخذ نصر، وأعمال الاسكندر المقدوني، وفتوحيات الدولة الرومانية، أو أعمال هانيبال، والفتوحات الإسلامية، ثم الحروب الصليبية، واستعمار الغرب لشعوب العالم، والحربان العالميتان الأولى والثانية، وما يتبعهما من حروب ضد الإرهاب وضد أسلحة الدمار الشامل وفي سبيل حقوق الإنسان، وما بين هذه الأحداث من آلاف الحروب والصراعات، يؤكد تمركز حركة التاريخ حول العنف ومفاعليه.

ومن أبرز الشواهد في أيامنا على التمركز حول أحداث العنف، هو اعتبار أحداث الحادي عشر من أيلول محطة فارقة بين ما قبل أيلول وما بعد أيلول/2001، وكذلك سيكون بعد حرب الخليج الثالثة، أي غزو العراق.

حتى الأحداث التاريخية الكبرى التي تعد أحداث إنقاذ للبشرية، يؤشر تاريخها إلى محطات تؤكد الولع باعتبار الأعمال العنيفة هي محط النظر ومولدة الحديث. ولو طبقنا ذلك على الإسلام كحدث كان مجيئه تبشيراً بخلاص البشرية، فإن الغالب على تاريخه هي أحداث العنف والصدام. تعذيب المسلمين الأوائل، الهجرة، معركة بدر، معركة أحد، حنين، الأحزاب، تبوك، فتح مكة.... إلخ.

وفي تاريخه اللاحق: مقتل عمر، مقتل عثمان، معركة الجمل، صفين، مقتل علي، الفتوح، الثورة العباسية... إلخ.

لو جربنا أن نهمل من تاريخ هذه المرحلة أحداث العنف، ماذا سيبقى منها، كمؤشرات ومحطات تأريخية؟ كذلك بالنسبة إلى تاريخ البشرية!

هل نردد مع من يرددون أن العنف هو محرك التاريخ وهو قابلته؟ وإذا كان الأمر كذلك أليس هناك ظلم وتبخيس للمعاني الحقيقية للحياة، ولكل القوى الطامحة إلى أن تحياها بمحبة وبكل الخير متجاوزة إعاقتها؟

هل العنف والصدام هو الهدف المبتغى، أم أنه الوسيلة؟ وإذا كان كذلك فكيف تغيب الغاية الحقيقة للحياة، ولكل القوى الساعية إليها ويحل محلها، إحدى أقذر وسائلها على صفحات التاريخ؟

يقول د. عادل العوّا معرفاً العنف: ((العنف إذن ضغط جسدي أو معنوي، ذو طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان بالإنسان، بالقدر الذي يتحمله على أنه مساس بممارسة حق أقر به بأنه حق أساسي أو بتصور للنمو الإنساني الممكن في فترة معينة))(1)

ليس التفكير في العنف أو الحوار هو الذي فرض نفسه بشكل مستقل، إن الذي فرضه هو التفكير في مآل البشرية، وأهم الطرق التي عليها أن تسلكها لخلاص فاعل، إذا كانت الطرق التي سلكتها فيما مضى محكومة بالأعمال العنيفة الصدامية التي تركت بصمتها، ليس على الماضي فقط، بل كأنها أصبحت جينات حضارية، ليس للحياة إذا أصرت على الاستمرار إلا أن تتوارثها!!

obeikandl.com

في هذا السياق يأتي التبشير بصراع (صدام) الحضارات، وكأن مهمة الحياة هي تزويد التاريخ بسلسلة لا تنتهي من الصدامات وأعمال العنف دون الإفساح في المجال لأساليب أخرى.

إننا نختلف بداية مع هذا الرأي،لكن اختلافنا معه لا يمنع وجوده أو يلغيه، ولا يمنع سيطرته على ساحة التفكير في العقد الماضي ربما أكثر من أية مرحلة أخرى. ربما كان السبب في ذلك هو الحجر الثقيل الذي ألقاه صامويل هنتنجتون في بركة الفكر، فرجّها رجّاً لم تهدأ بعده!

لقد شاهدنا تنويعات على هذه المعركة سنمر عليها لاحقاً مثل مقولة جلبير الأشقر ((صدام الهمجيات)) التي هي عنوان كتاب له، ومقولة المفكر إدوارد سعيد ((صدام الجهالات)) وهي عنوان مقال له، ومقولة (صدام المصالح) التي نراها محركاً من محركات التاريخ، لا بل أهم محركاته وأكثرها فاعلية.

يقول جلبير الأشقر: ((يا له من تفكير معكوس ذلك الذي تمثل في إطلاق ((صدام الحضارات)) على ما هو، بصورة جلية جداً، ((صدام همجيات)).)) (2)و((لكل حضارة همجيتها)) (3) و ((كلما كانت حضارة ما أغنى وأقوى، كلما كانت همجيتها مؤذية أكثر)) (4)

وإذا كان الأشقر يشير بكلامه أو بكتابه كاملاً إلى الصراع الذي دار بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي بنيويورك بين أمريكا وما أطلقت عليه الإرهاب الذي صورته متمثلاً بالإسلام السياسي وأبرز ممثليه المنظمة التي يقودها أسامة بن لادن وحلفاؤه من الطالبان الأفغان، فما لا شك فيه أن إشارته ((صدام الهمجيات)) هي من التنويعات على ((صدام الحضارات)) لصاحبه هنتنجتون.

الملفت أن هذا العنوان أصبح يوجه حركة التفكير في العلاقات بين الأمم والشعوب، من خلال التعامل معه، والردود عليه، حتى أصبح الخروج منه محاولة لا تلبث أن تعود إليه من خلال الدوران حول الفكرة.

ومع أن العنوان ((صدام الحضارات ـ إعادة صنع النظام العالمي)) يدل على إرادوية فجة، لا بل تتسم بالوقاحة الفكرية كما تتسم أعمال أمريكا الذي هو ترجمان لها بالوقاحة السياسية، فلم يجد المفكرون والباحثون مناصاً من التعامل

معه ومع الفكرة، لما شكلته من صدمة للفكر، ورجة لساحته، عندما يجدون أن النظام العالمي كما تحلم به قوى السيطرة يتطلب من يتبنى فكرة إعادة صنعه حسب متطلبات السطوة والسيطرة، وهذا ما أسسه هنتنجتون على أسس ثابتة ـ أو حاول ذلك ـ حين قال: ((إن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة)) (5).

كما يرى أن احتمالات العنف قائمة بين من ينتمون إلى حضارات مختلفة: ((الصراعات الأكثر ترجيحاً أن تمتد إلى حروب أوسع هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة))(6) ، واستقراء التاريخ لا يدفعنا إلى الانسجام مع هذا الرأي، لما سنبينه لاحقاً من أن الصدامات العنيفة تصنعها المصالح وتضاربها سواء بين المنسجمين أو المختلفين حضارياً.

كما أن رأيه حول أن الحضارة إذا كانت: ((مكونة من دول، فإن هذه الدول ستكون بينها علاقات أكثر مما بينها وبين دول من حضارات أخرى))(7) لا يصمد أمام الامتحان، كما يبين استقراء العلاقة بين الدول العربية، ذات الوشائج العميقة والمتعددة، والذي يظهر أن علاقات هذه الدول بين بعضها ـ وفي أكثر الأحيان ـ لا تقاس بعلاقاتها مع الدول الأجنبية في حقول متعددة، وكذلك الأمر بين الدول الإسلامية ببعضها، فعلاقة تريكا بالغرب تفوق علاقتها بالدول الإسلامية، وعلاقة إيران بكثير من الدول الإسلامية غير جيدة، وعلاقة كوبا بأمريكا لا تتأسس على الود لاختلاف المصالح، ومثل ذلك كثير.

لم تكن خيبة الفكر، في اعتبار المقولة تمهيداً وتأسيساً وتثبيتاً لنوايا وأغراض، كما لسياسات وأعمال، فهذا معروف في التاريخ، أن يكون الفكر مطواعاً لقوى البطش وهادياً لها، إن الخيبة كانت في تهافت المقولة ذاتها، وفي فجاجة طرحها. فالدكتور محمد عابد الجابري يرى أن الانشغال بمقال صدام الحضارات الذي يتصف بكل ما يعتري المقال الصحفي من وجوه النقص، سواء على مستوى المادة أو على مستوى الصياغة، لم يكن له كل هذه المبررات.(8)

openkanar.com

وواضح أن حديثه قبل أن يتحول المقال إلى كتاب يستجر تعليقات أكثر حيث ينطوي على سلبيات أكثر.

كما ينقل الجابري عن ((باري بوزان)) الصحفي المرموق وأستاذ الدراسات الدورية في الجامعات البريطانية، رأيه بأن هنتنجتون لم يفعل سوى أنه قسم العالم إلى مركز وأطراف. (9)

وهذا ما يذكرنا بمقولات د. سمير أمين، لكن من الاتجاه المقابل.

الوضع في العالم يبدي تنافراً شديداً، لوضوح الاصطفافات وما تولده قبالتها من ردود أفعال، بل ما تولده من حالة كارثية أحياناً، تخفيها الأحداث والأطماع تحت الوجه الناعم لما يظهر على السطح، يقول د. علي نوح: ((إذن نحن نعيش عصر العولمة والأصوليات في آن معاً. وبالتالي نحن نسير باتجاه القطيعة المعرفية والثقافية أكثر مما نسير نحو الحوار والتفاعل، رغم ما قيل ويقال عن تحول العالم إلى قرية صغيرة بفعل ثورة المعلومات أو المعلوماتية))(10) وواضح ما في جمعه بين العولمة والأصوليات من تناقض يتربص بالعالم والحضارة.

إن كتاب هنتنجتون هو تكريس للأصوليات وشرعنة لها بإكسابها الأبعاد الحضارية من جهة، وإكسابها الأبعاد الدولية سياسياً وفكرياً، إنه كتاب ينضح بالخدمة للأصولية الغربية كما سنرى. وفي هذا ما فيه من ردود على منطق العولمة، وهذا ما سنعود إليه لاحقاً أيضاً.

إنها تعيد تكريس منطق العزلة لدى الحضارات، وهو ما أشار إليه شبنجلر الذي رأى أن روح الحضارات هو العزلة فالانغلاق، إذ أن الإنسان في حضارة بعينها لا يستطيع بأي حال أن يفهم لغة الحضارة الأخرى وما ينطق به مصير الآخر. (11)

ومع أن هذا الكلام لا يصمد أمام النقد التاريخي والعلمي الرصين، فلا يزال يعاد طرحه وإنتاجه لأغراض واضحة الشبهة، وأصحابه يضربون بكل تجارب الشعوب والتواصل بينها عرض الحائط.

من هنا تأتي أهم مساوئ ما يطرحه هنتنجتون، فهو هنا صوت الشيطان المؤذن بالخراب والشر، عندما يصبح صوت القوى المبشرة والساعية للهيمنة والتسلط، مضحية بتراث عالمي كبير من الحوارات والتواصل في سبيل مصالحها.

obeikandi.com

لقد فرض هنتنجتون منذ عام /1993/ قناعاته ورؤاه لواقع العالم ومستقبله، على مساحة التفكير الاستراتيجي والعلاقات بين الشعوب والحضارات والدول والمجموعات والتجمعات على مستوى العالم. لقد وضع الحضارات التي أثبتت تعاونها عبر التاريخ لبناء العالم على الصورة التي نراها اليوم، في وضع تناحري، يتنكر الناس فيه لبعضهم وينتقلون من ساحة القبول والوئام إلى عالم التنابذ والكره.

لم يكن العالم يوماً من صناعة هنتنجتون ومن يمثل، ولا من تطبيق شخصية أو حضارة ما، بالرغم من أن البشرية عبر تاريخها أنتجت شخصيات عملاقة لا حصر لها في مجالات التنظيم والقيادة.

كانت كبريات الشخصيات تفرض رؤية مهيمنة، دينية أو دنيوية، على فئة من الناس ومساحة من الأرض تكبر أو تصغر، وآثار هذه الشخصيات من الأنبياء والقادة الزمنيين باقية تدل على أهميتهم وأهمية ما قدموه للبشرية عندما أصبحوا عامل توحيد لمجموعات بشرية تهتدي بتفكيرهم ورؤيتهم للحياة.

ولقد أثبتت هذه التجمعات قدرتها على التضافر والتعاون لبناء العالم الذي نعيش، كما أثبتت قدرتها على تحييد العناصر الصانعة للفرقة عندما تحتاج البشرية أن تعيش بوئام، بالرغم من الكثير من الصراعات الجزئية المحدودة أو الواسعة التي خاضتها البشرية والتي كانت تعكر صفو العلاقات الدولية، لكن سرعان ما كانت القوى التي تغلب مصالح البشرية جمعاء على مصالح الفئات التي تصطنع الحروب والنزاعات، وتعود البشرية إلى سيرتها في تكريس مناخات التعايش والتصالح واستبعاد عناصر الفرقة والتناحر.

هناك عادات تختلف بين الشعوب، وهناك قناعات وتفارقات تبرزها الأيام والأحداث توحي بأن التباعد بين جزئيات إنسانية أو وحدات بشرية، هو من الصلابة بحيث لا تقدر عليه الأيام، لكن الزمن يظهر أنه كفيل بتغيير ما من مواصفاته الثبات والصلابة. يورد الفيلسوف كارل ربوبر عن هيرودوت - أبو التاريخ - أقصوصة شائقة وإن كانت بشعة إلى حد ما، عن ملك الفرس ((داريوس الأول)) الذي أراد أن يلقّن الإغريق المقيمين في إمبراطوريته درساً. وكان من عادة الإغريق أن يحرقوا موتاهم، ونقرأ في كتاب هيرودوت أن داريوس ((استدعى الإغريق الذين يعيشون في

obeikandl.com

بلاده، وسألهم عن الثمن الذي يرتضونه كي يلتهموا أباءهم حين يتوفون. فأجابوه أن لا شيء البتة على ظهر الأرض يمكن أن يغريهم بفعل هذا. حينئذ استدعى داريوس الكلاتيين الذي يأكلون آباءهم بالفعل، وفي حضور الإغريق بمعونة من يترجم لهم، سأل الكلاتيين عن الثمن الذي قد يرتضونه لكي يحرقوا جثث آبائهم حين يتوفون. فكان أن تعالت صرخاتهم وناشدوه ألا يذكر مثل هذه الشناعة))(12).

ومع ما لهذه الحكاية من دلالة في التمترس في المواقع والحفاظ على العادات، فإن الأيام كانت كفيلة بأن ترقق حواشي العادات، وأن تتغير هذه الأفعال الشنيعة بدون تدخلات أو قسر عبر حوار المجموعات البشرية التي تساهم في تناقل وصيانة القيم الحضارية.

لا تستطيع أية مجموعة بشرية (حضارة) الادعاء أن العالم من صنعها، وأن ما وصلت إليه البشرية يحمل توقيعها وحدها أو بصمتها المنفردة. إن ما وصلت إليه البشرية هو بتوقيع مجموع الشعوب التي مرت على مسرح الحياة في هذا الكون حسب أقدارهم ومكانتهم وأدوارهم، لقد كانوا سماداً للتاريخ (حسب تعبير غرامشي) جعله يخصب بواسطة قيم (العمل).

لماذا يحاول هنتنجتون أو غيره من منظري الجماعات فرض رؤية أحادية على المتعدد، ويغلبون التناحر على المسالمة؟

لا شك أن في ذلك مصالح لقوى يمثلها هؤلاء، وبنظرة متفحصة نرى أن من له المصلحة في خوض صدام ما، هو من يرى نفسه قادراً على انتزاع النصر، حتى ولو كان هناك وعي أو تفهم بأن الصراعات المسلحة لا تجلب المنافع في حصيلتها النهائية، بل إنها كفيلة بجلب الكوارث والمآسي على المستويات الفردية والجماعية.

إن التحدث باسم القوة الأمريكية المتغطرسة يظهر دون مواربة في دعوة الولايات المتحدة إذا أرادات الحفاظ على (مصالحها)، إلى اتخاذ إجراءات في وجه السيناريوهات المحتملة للصراعات على مستوى العالم والتي يقدم بعض النماذج لها، فهنتنجتون يرى أنه للحفاظ على الحضارة الغربية في وجه القوة الغربية (المتدهورة) يصبح من (صالح) الولايات المتحدة والدول الأوروبية:

obeikandi.com

1 - تحقيق تكامل سياسي واقتصادي وعسكري.

....

4 - كبح القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للدول الإسلامية والصينية.

....

7 - المحافظة على التفوق التكنولوجي والعسكري على الحضارات الأخرى.(13)

أخلص من هذا إلى الإشارة بأن الحديث يتم باسم (صالح الولايات المتحدة والدول الأوروبية) بشكل واضح وصريح. هذا الفكر والتنظير والتبشير بالخراب والدمار المستقبلي، والذي ينتج عن علاقة الحضارات التي عرفت كل أشكال التعاون، يتم لمصلحة جهة ما أو حضارة ما، لتبرير تسلطها وهيمنتها، ولإقناع العالم أن سيادة الهمجية الأمريكية، وسعيها لجعل العالم، وخاصة بلادنا العربية والعالم الإسلامي حطاماً يسهل عليها إعادة تشكيله، هو قضية مبررة، بل وتساير منطق الحضارات (المصطنع) في أن على الأقوى أن يحطم الأضعف كي يكتب له البقاء بطمأنينة ودون منغصات.

إن تقزيم الآخرين في سبيل الحصول على القوة المطلقة من دون منافسة، ليس سمة من لا تعاني قوتهم كدراً، ولا يخافون من أي جانب ضعف فيها. إن تقزيم الآخرين يؤكد عدم قدرة الذات على التسامي والارتفاع، بالتالي لا تكون الذات كبيرة إلا إذا كان الآخرون صغاراً، ولهذا تعمل أمريكا على تصغير الأخرين وتحطيمهم، لأن هناك استشعاراً لعوامل تنخر لب الحضارة والمجتمع الأمريكي يصرح بها هنتنجتون، وهو يؤكد: ((في عالم الصدام الحضاري والإثني الناشيء، يعاني اعتقاد الغرب في عالمية ثقافته من ثلاث مشكلات: فهو اعتقاد زائف، ولا أخلاقي، وخطر))(14) كما يورد رأي الفيلسوف الياباني(تاكيشي أومي هارا): ((بأن الإخفاق التام للماركسية.. والتفكك الدرامي للاتحاد السوفييتي ليسا سوى نذر لسقوط الليبرالية التي هي تيار التحديث الرئيسي... وستكون الليبرالية هي حجر الدومينو الذي عليه الدور في السقوط)) (15)

ويعتبر هنتنجتون أن ما هو أهم من النواحي الاقتصادية والسكانية، وهو مشكلات الانهيار الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي في الغرب. وإن تجليات الانهيار الأخلاقي التي يشار إليها غالباً تتضمن:

1 - زيادة في السلوك غير الاجتماعي مثل الجريمة وتعاطي المخدرات و أعمال العنف بشكل عام.

2 - التفكك الأسري.

3 - التدهور في الرأسمال الاجتماعي أي عضوية المؤسسات التطوعية.

4 - الضعف العام في أخلاقيات العمل وصعود توجهات الانغماس الذاتي.

5 - تناقض الالتزام بالتعلم والنشاط الفكري، ويظهر ذلك في المستويات المتدنية للتحصيل الدراسي في الولايات المتحدة. (16)

هذا الكلام بحرفيته يقوله هنتنجتون، وفيه ما فيه من إيحاء باستشعار نقاط ضعف وسقوط، ونذر شؤم على حضارة تتسيد العالم وتدعي تفوقها. إن هذا الشعور بـالتفوق كما يسميه صاحبه هو شعور زائف إلى حد ما، وللتعويض لا بد من تقزيم الآخرين.

إن الإنسان العادي لا يبدو عادياً بين العمالقة، بل يبدو عادياً بين العاديين أمثاله، ولكي يبدو عملاقاً لا بد أن يكون بين الأقزام.

هكذا يبدو السعي لتقزيم الآخرين وتحطيمهم ضرورة، عكس ما فعله مفكرون غربيون آخرون، مثل ول ديورانت وروجيه عارودي وغيرهم ممن درسوا الحضارات.

obeikandl.com

هوامش الفصل

1 - د. عادل العوّا، التسامح - من العنف ... إلى الحوار، دار الفاضل، دمشق، ط2002/1 ص114.

2 - جلبير الأشقر، صدام الهمجيات - الإرهاب، والإرهاب المقابل والفوضى العالمية قبل 11 أيلول وبعده، نقلة إلى العربية: كميل داغر، راجعه : المؤلف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 أيلول /2002/ ص 89

3 - المرجع السابق ص91.

4 - المرجع السابق ص 92.

5 - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي، سطور، ط2 /1999/ ص 37.

6 - المرجع السابق، ص48.

7 - المرجع السابق ص70.

8 - د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 /1997/ ص 84.

9 - المرجع السابق ص .87

10 - د. علي نوح، مقال بعنوان: العالم المعاصر في حوار أم صراع حضارات؟ ، مجلة المعرفة، العدد /473/، شباط ص96.

11 - أديب ديمتري، نفي العقل، كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، ط1993/1/ ص332.

12 - كارل ر. بوبر، أسطورة الإطار - في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير: مارك أ. نوترنو، ترجمة: أ.د. يمنى طريف الخولي - سلسلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عدد: إبريل/مايو/2003 رقم /292/ ص 62.

13 - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص 504.

14 - المرجع السابق ص .502

obeikandl.com